تاريخ حرب المحرقات ونتائجها

بقلم : اللواء الركن : محمود شيت خطاب

١

■■ كان صنع الأسلحة المحرقة في تطور منذ قرون طويلة ؛ شأنها في ذلك شأن أكثر الأسلحة الحديثة الأخرى ، وقد زادت اهميتها وقلّت بالنسبة إلى الأسلحة الأخرى في أوقات مختلفة وأقسام مختلفة من العالم ؛ ولكننا إذ ننظر إلى الماضي يتضح لنا أنها اليوم في عهد جديد من الارتقاء ؛ لوجود بعض الأغراض العسكرية التي تؤدي إلى ارتقاء أسلحة المحرقات . ■■

شيء من التاريخ :

لقد رافقت النارُ الحربَ منذ القدم ،.واستخدمت لإحلال الدّمار بمساكن العدو وامواله ومزروعاته ، غير ان استخدام النار وسيلة من وسائل التعبية التي تستهدف حرق الأرض يختلف عن استخدامها سلاحاً : اي وسيلة تبسط بها على العدو قوّة ممكنة التنظيم . وقد كان استخدام النار سلاحاً قد اقتصر زمناً طويلاً على عمليات متخصّصة تتعلق بالحصار والحرب البحرية ؛ وذلك لأسباب فنيّة .

وفي هذا المجال يمتد تاريخ حرب المحرقات المدوّن إلى ما قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة ، فقد اكتشفت مثلاً نقوش آشورية بارزة ظهر فيها المدافعون عن مدينة محاصرة في القرن التاسع قبل الميلاد وهم يصدون آلات الحصار بإلقاء سائل محترق عليها . والأمثلة اليونانية والرومانية عن أسلحة النار البحرية هي : (سفينة النار) التي كانت تسير مع الريح حتى تصطدم بأساطيل العدو او موانيه ، و (النار الإغريقية) أشهر سلاح محرق من أسلحة العالم القديم والتي استخدمها البيزنطيون أول ما استخدموها في حرب المسلمين حين حاصروا القسطنطينية بقيادة مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان على عهد اخيه سليمان بن عبد الملك ، وهذه النار تتكون من مركّب محرق سائل ذي أساس نفطي برز في القرن السابع للميلاد ، والذي نستطيع أن نفهمه من الأخبار المتضاربة عن هذا السلاح أن خواصه تكمن في وسيلة الإيصال التي صممها له المهندس والمعماري السوري (كالينيكس Callinicus) ، الا وهي مضخة كبيرة الطاقة يمكن أن تُركّب في مقدم السفينة الحربية او على سور المدينة ...

ونشأت مع نشوء المدفعية الذي أعقب اكتشاف البارود انواع جديدة من القذائف المحرقة ، فاتصل بذلك خط التطور الذي يرجع إلى السهم الناري ، ولكن لم تثبت قنابل المدفعية ذات المتفجرات ان تغلبت على هذه العُدد المحرقة الجديدة ، ولم يشع استخدامها مرة أخرى حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي ؛ وكان الهدف الأول من استخدامها ـ كالسهم الناري ـ إشعال النيران في حصون العدو ، أو تدمير سفنه في البحر .

وقد طوّيت الأسلحة المحرقة سريعاً في الحرب العالمية الأولى ؛ شأنها شأن جوانب أخرى من الفن الصناعي العسكري . وبالرغم من ان الوسائل الفنية لحرب المحرقات لم تحظ بمكانة كبيرة اثناء الحرب ، فقد كانت تؤلف السابقات التي نمت منها الوسائل التي تستعمل اليوم .

إن أخطر الأساليب التي اشتملت عليها الحرب العالمية الأولى ، هو استخدام سفن الهواء والطائرات لإلقاء القنابل المحرقة على أهداف واقعة في أعماق مؤخرة العدو أو في وطن العدو . وقد قام الجانبان المتحاربان بعمليات من هذا النوع ، ولكن مقياسها كان صغيراً نسبياً ؛ نظراً إلى ان مقدرة الطائرات يومذاك كانت قليلة ، فمجموع القنابل المحرقة التي اسقطت على المدن البريطانية مثلاً لم يزد عن حوالي ثلاثة آلاف قنبلة ـ مع عدد اكبر من القنابل المهداد ـ ولكنها أذعرت المدنيين ايما ذعر .

فقد استخدم الجيش الألماني في أوائل الحرب العالمية الأولى قاذفات اللهب التي كان مشغولاً بصنعها في السنوات التي سبقت الحرب ، وهي سلاح ثقيل غير مُتَنَقِّل كثير الشبه بأنبوب كالينيكس الذي تقذف به النار الإغريقية : استخدمت لقذف مجرى ملتهب من الزيت على النقطة الحصينة في منظومة خنادق العدو ، قبل ان يصول عليه المشاة مباشرة . وقد نجحت أحياناً في هذه المهمة نجاحاً تعبوياً . وقلّدها فيها أكثر الدول المتحاربة الأخرى . وصُنعت انواع محمولة منها ايضاً ، ولكن هذه الأسلحة عموماً كانت مفرطة في التعقيد ، ولا يُعتمد عليها ، وفيها خطر على من يستعملها ، فلم تكن لذلك كله ذات قيمة عسكرية كبيرة .

وقد استخدمت في الحرب العالمية الأولى استخداماً كثيراً قنابل محرقة تُرمى من المدافع أو هاوين الخنادق لإشعال النّار في منظومات خنادق العدو أو وسائل

تاريخ حرب المحرقات ونتائجها

إسناده . واستخدمت كذلك لمقاتلة الافراد بأن رُكّبت فيها صمامات توقيت حتى تصعق في الهواء ممطرة وابلاً من جزيئات الفسفور الأبيض المحترقة أو الحديد المنصهر (من مركبات الثيرمايت) . وغالباً ما استخدمت الجماعات المغيرة رمانات يدوية مملوءة بالفسفور الأبيض أو الثيرمايت .

ويبدو أن علماء الأسلحة والمفكرين العسكريين لم يكن عندهم في العقدين اللذين أعقبا الحرب العالمية الأولى اهتمام بالأسلحة المحرقة : لأن تأثيرها في تلك الحرب لم يكن تأثيراً باهراً ؛ أو كانوا مختلفين في شأن ما يمكن أن يكون لها من جدوى : فالذين أدركوا أن القتال من الجو ـ ولا سيما مقاتلة الأهداف المدنية ـ يمكن أن يكون ذا أهمية كبيرة في المستقبل رأوا أن القنابل المحرقة الملقاة من الطائرات ذات فوائد محتملة أكثر من الأنواع الأخرى من الأسلحة المحرقة . ولو أنه لم يكن جليّاً في ذلك الوقت أن القنابل المحرقة تفوق في أي شيء القنابل المهداد . وكانت طائفة في البلدان المنهمكة بصنع الدبابات ترى أن عجلات القتال المدرعة قد زادت من الفوائد المرجوة من قاذفات اللهب : لأنها قد تزيد قابلية حركتها وتقلّل من وهن العمليات التي تستخدم فيها . وقد ارتُئِي أن قاذفات اللهب الآلية المركبة على عجلات قتال يمكن أن تكون وسيلة لخرق المناطق الدفاعية العظيمة التي كانت تُبنى في تلك السنوات ـ مثل خط ماجينو ـ وارتُئِي أيضاً أن وضع قاذفات اللهب في منعات قد يكون ذا قيمة كبيرة في الدفاع عن هذه المناطق .

لقد طبقت بضعة من هذه الأمور الممكنة في العقد الرابع من القرن العشرين . فاستخدمت قاذفات اللهب المحمولة وكذلك المركبة على الدبابات في الحرب بين إيطاليا والحبشة والحرب الأهلية الأسبانية . واستخدمت القنابل المحرقة في هجمات على مناطق مأهولة . وقد استثارت هذه الأحداث اهتماماً عسكرياً واسع المدى . فوضعت كل القوى العسكرية الكبيرة مناهج لتطوير الحرب بالمحرقات أو زادت من سرعة تنفيذها . فلما نشبت الحرب العالمية الثانية . كان كثير من الأسلحة الحديثة جاهزاً . ينتظر أن يُجرَّب في ميدان القتال .

في الحرب العالمية الثانية وما بعدها

الغارات الجوية على المدن بالمحرقات

سنتطرق إلى استخدام الأسلحة منذ أيام الحرب العالمية الثانية حتى اليوم في مهاجمة المدنيين . والبيئة الطبيعية التي يعيشون فيها . ووسائل إنتاجهم ومعاشهم . إن مبدأ التفريق بين المحاربين وبين غير المحاربين ـ على ما له من شأن خطير ـ غالباً ما يُستهان به في الحرب الشاملة أو الحرب الإجماعية كما يسمونها في قسم من البلدان العربية أو الحرب الاعتصابية في بلدان أخرى . والمصطلح المعتمد هو : **الحرب الإجماعية** .

ويتعرض غير المحاربين من السكان في منطقة ما لخطر كبير في المنازعات التي ليس فيها خطوط أمامية واضحة التحديد . فهم معرضون لخطر الاشتباه بأنهم محاربون والجد في طلبهم وتوخيهم للهجوم المباشر . ففي حرب فيتنام مثلاً تعرضت مجموعات كثيرة من الأكواخ المنعزلة للهجوم . ولا شك في أن غير حرب فيتنام قد حصل فيها ما حصل في حرب فيتنام . فذهب الأخضر بسعر اليابس وغير المحارب بسعر المحارب . ويزداد احتمال الخطأ في التمييز بين المحاربين وغير المحاربين في هذه الظروف حتى عندما يكون ذلك ممكناً . حين تُتّخذ قرارات الهجوم على عجل . ويكون المهاجم بعيداً عن الهدف . وقد لا يقلّ ما يصيب غير المحاربين عما يصيب المحاربين . عندما تُستخدم أسلحة مدمِّرة . مثل قنابل النابالم النارية . التي لا تُعدّ عشوائيتها عيباً يقيّد استعمالها . بل مزية تعبوية هي التأثير في المنطقة بكاملها .

وقد كان استخدام الأسلحة المحرقة في السنة الأولى من الحرب العالمية الثانية مقصوراً على ميدان القتال إلى حدٍّ بعيد . ولكن ابتداءً مع الغارة الجوية على لندن في أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٤٠م . وهي الغارة التي تضمنت استخدام القنابل المحرقة . عملية زيادة دائمة في الشدة حتى استقر شأن الهجوم الجوي بالمحرقات على أنه أفتك وسيلة من وسائل التدمير الشامل استُخدمت في الحرب حتى الآن . وكانت أهداف هذه الهجمات أول الأمر عسكرية ظاهراً . ولكن لم يكن مفر من أن ينزل بالمدنيين العاملين فيها أو الساكنين حولها أذىً كبير من شدة انعدام الدقة في أساليب القصف القديمة . وقد خرقت حصانة غير المحاربين التي نص عليها قانون الحرب الدولي مصادفة أول الأمر (على ما يقول به أناس) . ولكنها خُرقت بعد ذلك عمداً . ثم لم تلبث أن غدا المدنيون في بلاد العدو هدفاً أساسياً تتوخاه حملة القصف السوقي . وكانت الأسلحة المحرقة من أفتك الوسائل وأنجحها .

وبالرغم من أن الأسلحة المحرقة استُخدمت في الهجوم الجوي على المدن قبل الحرب العالمية الثانية . فقليل مَنْ توقع رؤية مشاهد الخراب الفظيع الذي أسفر عنه استخدامها في تلك الحرب . فالقنابل التي أُلقيت على مدينة يابانية يبلغ وزنها حوالي مائة ألف طن . وتكاد تكون كلها من المحرقات . وكان ثمانون بالمائة وزناً من المحرقات قنابل نابالم . وما تبقى مغنيسيوم أو ثيرمايت . فقتلت الغارات الجوية مائتين وستين ألفاً (٢٦٠,٠٠٠) . وأصابت أربعمائة واثني عشر ألفاً (٤١٢,٠٠٠) غيرهم من السكان . ودمَّرت ما يقرب من مليونين وربع المليون من المساكن . وتركت تسعة ملايين ومائتي ألف بلا مأوى .

أما ألمانيا . فأُلقي على المناطق المأهولة فيها مليون وثلاثمائة وخمسون ألف طن من القنابل . إذ استُهدف تسع وأربعون مدينة لهجوم واسع كبير . وكان أكثر من ثلاثة أرباع الإصابات التي حصلت للمدنيين ناتجاً عن الحروق . على أن أقل من ربع القنابل التي أُلقيت كان من القنابل المحرقة . ويُقدَّر عدد المدنيين الذين أُصيبوا في الغارات الجوية على ألمانيا بمليون وأربعين ألفاً . من بينهم واحد وستون ألف (٦١,٠٠٠) قتيل .

والمدنيون الذين أصيبوا في المملكة المتحدة في الغارات الجوية مائة وسبعة وأربعون ألفاً (١٤٧,٠٠٠) من بينهم واحد وستون ألف (٦١,٠٠٠) قتيل .

وكان يُظن في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية أن القنابل المهداد أفضل من المحرقات في الهجوم على المناطق المدنية . ولكن تبين بعد ذلك من تحليل صور الاستطلاع ووسائل التمحيص الأخرى . أن الأمر خلاف ذلك . فأخذ استعمال المحرقات يتزايد منذ ذلك تزايداً سريعاً . وتبين من حساب أُجري على أساس ما شوهد في ألمانيا . أن طناً واحداً من المحرقات يُحدث من الضرر المادي مثل ما تحدثه أربعة أطنان وثمانية أعشار الطن (٤,٨) من القنابل المهداد . وكذلك وُجد في اليابان أن تدمير المحرقات للأهداف الفورية الاحتراق كان أقوى من القنابل

■ إن طناً واحداً من المحرقات يحدث من الضرر المادي ما تحدثه أربعة أطنان وثمانية أعشار الطن من القنابل المهداد ، كما أن تدمير المحرقات للأهداف الفورية الاحتراق أقوى باثنتي عشرة مرة منها . ■

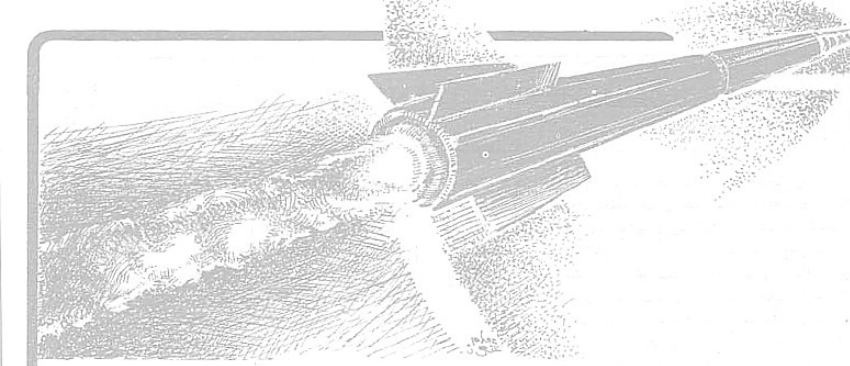

المهداد باثنتي عشرة مرة ، وتأثيرها في الأهداف المقاومة للحريق أقوى بمقدار مرة ونصف المرة .

وكانت الغارتان الجويتان على مدينة هامبورغ في صيف سنة ١٩٤٣م ومدينة دريزدن في شباط (فبراير) من سنة ١٩٤٥م أشد الغارات الجوية على ألمانيا تخريباً وفتكاً ، فقد أُلقي فيهما أطنان كثيرة من الأسلحة المحرقة ، ونجحتا في إحداث عواصف نارية ، وقتل فيها أعداد هائلة من الناس . وبالرغم من افتقارنا إلى أرقام إحصائية موثوق بها عن أية من هاتين الغارتين الجويتين ، فإنه يعتقد أن ما يقرب من مائة وخمسة وثلاثين ألفاً (١٣٥,٠٠٠) قتلوا في الغارة على دريزدن ، ومن الروايات الأخرى ما يذكر أرقاماً أكبر ، ومنها ما يذكر أرقاماً أقل ، وقد طفحت المدينة باللاجئين الذين لم يُسجّل وجود كثير منهم فيها ، ولم يبق من السكان في مناطق عديدة غير أكوام من جثث قد تفحمت حتى استعصت على التمييز ، وتفسخ كثير منها تفسخاً تاماً . لقد كانت القنابل المحرقة لا تقل عن ثلثي ما أُلقي على المدينة في الثالث عشر والرابع عشر من شباط (فبراير) سنة ١٩٤٥م من القنابل التي بلغ وزنها ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين (٣٧٥٠) طناً .

وكان الهجوم على هامبورغ متقطعاً ولكن شديداً في صيف ١٩٤٣م ، فقد اضبثت المدينة بأربعة آلاف واربعمائة (٤٤٠٠) طن من القنابل المهداد ، والفين وسبعمائة (٢٧٠٠) طن من محرقات مغنيسيوم/ثيرميت ، وألف وتسعمائة (١٩٠٠) طن من قنابل البنزين المغلظ . وطارت القاصفات حوالي ثلاثة آلاف طيرة في واجبات قصف فوق المدينة ، واستُنفر لتجهيزها وإدارتها مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) فرد . وقد نُفّذت أكثر الهجمات في أحوال قصف متصفة بالكمال على عدو قد شُوّشت منظومة إنذاره الرادارية سلفاً ، وثبت أن دفاعاته الأرضية والجوية ضعيفة ضعفاً غير مألوف . وكان الجو حاراً وجافاً ، وقد كسر الهجوم الأول عدّة أقفال من أقفال مصادر الماء الرئيسة حتى لا يمكن حينذاك من إطفاء الحرائق ، ولا يكون هناك أي أمل في النجاح في إطفائها بعد ذلك . وكان في هجوم الليلة الواقعة بين السابع والعشرين والثامن والعشرين من تموز (يوليو) شدّة وتنسيق أدّيا إلى تأجيج حريق هائل تحول بعد ذلك إلى عاصفة نارية تشبه الإعصار . وقد احترق إسفلت الشوارع ودمر حوالي نصف مساكن المدينة تدميراً تاماً ، ولم يسلم من الدمار إلاّ عشرون بالمائة من النصف الآخر ، وشمل الدمار حوالي خمسة وثلاثين (٣٥) كيلومتراً مربعاً من مركز المدينة تاركاً هناك اربعين مليون طن من الأنقاض ، وقُتل في ذلك ثلاثة واربعون ألفاً (٤٣,٠٠٠) أويزيدون ، واستغرق استخراج الجثث من تحت الأنقاض أكثر من شهرين .

ولم يستعمل في الهجوم على طوكيو في الليلة الواقعة بين التاسع والعاشر من آذار (مارس) من سنة ١٩٤٥م سوى المحرقات ، وقد تجاوز هذا الهجوم من حيث عدد الذين ماتوا فيه الدمار الذي أحدثه أي من الهجومين النوويين اللذين اعقباه على هيروشيما وناغازاكي ، فقد أُلقي من مائتين وتسع وسبعين قاصفة (٢٧٩) الف وستمائة وخمسة وستون (١٦٦٥) طناً من قنابل النابالم ، أكثرها عناقيد من المعدات السغيرة ذات قذف القاعدة التي وزنها ستة باوندات . فما انقضى نصف ساعة حتى كانت النيران قد سيطرت على مركز المدينة الفوري الالتهاب ، ثم هبّت على الحريق ريح شديدة فاستحالت إلى حريق هائل الضخامة ، الذي آخر الأمر إلى تدمير أو تخريب شديد شمل حوالي ستين كيلومتراً مربعاً من طوكيو ، وكان لهبها يُرى من مسافة اربعين ميلاً . وقد نجت من التدمير الشامل طائفة من الأبنية الحديثة المقاومة للحرائق الموجودة في وسط المدينة . أما الغالب ، حتى من هذا النوع من المباني ، فقد غادرته النيران هياكل مزعزعة ، وذاب الكونكريت والزجاج والقضبان الفولاذية من شدة الحرارة ، واستحالت البنايات الخشبية لهباً قبل ان تصلها جبهة الحريق فعلاً . وقد افلح جماعة من السكان في الفرار سالكين دروب النار العريضة ، غير أن كثيرين أحاطت بهم السنة اللهب وماتوا اختناقاً أو بتأثير الحريق . أما الذين هربوا صوب قنوات المدينة ، فواجهوا الموت بالماء المحرق أو بأقدام الحشد الهائل من الناس المذعورين الذين تراكضوا نحوها وألقوا انفسهم فوقهم فحطموهم . ويُقدّر عدد الذين ماتوا في ذلك ثلاثة وثمانون ألفاً وثمانمائة إنسان (٨٣,٨٠٠) ، واصيب واحد واربعون ألفاً (٤١,٠٠٠) ، وشرد اكثر من مليون .

وظل الهجوم بالمحرقات من الجو يتكرر على المناطق المأهولة منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد حدث مثل مهم من امثلة ذلك في الحرب الكورية ، عندما دمرت المحرقات قسماً كبيراً من مدينة (بيونغيانغ) في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥١م .

■ إن مبدأ التفريق بين المحاربين وبين غير المحاربين ـ على ما له من شأن خطير ـ غالباً ما يستهان به في الحرب الشاملة . ■

الأسلحة المحرقة والأهداف الطبيعية

لقد تكرر الاهتمام باستخدام الأسلحة المحرقة منذ أيام الحرب العالمية الأولى لإيذاء العدو بتدمير زراعته ومناطقه الزراعية ، وكانت المحصولات والمزروعات

الحقلية أحد الأهداف المتوخاة في خطط الإنهاك أو التجويع ، والهدف الآخر الأرض المغطاة بالزروع الطبيعية : إذ أن إحراق ما فيها من زرع يسهل الاستطلاع الجوي أو الإحاطة بالهدف ، أو يقلل من الحسنات التي تجعل طائفة من المناطق الريفية تنتخب لتكون أماكن معسكرات قاعدة أو مناطق قطعات عسكرية ، أو مناطق تموين . ولما كانت أسلحة الرمي الاعتيادية غالباً ما لا تلائم للاستخدام في هذه الأغراض ، فقد ابتكرت أسلحة وأساليب خاصة واستخدمت بدلاً منها ولم تنجح هذه المحاولات إلاّ بقدر ، لعلها ستنجح يوماً ما نجاحاً أكبر في بعض المناطق من العالم .

وقد ألقي الكثير من المحرقات البريقية ، ويسمى : (الحلاق البوريقي) ، وهو يتألف من رقيقة صغيرة أو رقيقتين من مواد لدنة قابلة للالتهاب مغلفتين بمركب قادر يحتوي على الفسفور الأبيض الذي يشتعل عند تعرضه للهواء ، ويمكن للطائرات أن تلقي عدة آلاف من هذه الأسلحة على المزروعات ، وأُلقيت أسلحة من قبيل المحرقات البوريقية على مزارع الحبوب في ألمانيا في المراحل الأولى من الحرب العالمية الثانية .

وكانت بين سنة ١٩٦٥م وسنة ١٩٦٧م محاولات في فيتنام لإشعال حرائق متداعية في مناطق الغابات ، فانتخبت لذلك مناطق جُفّفت سلفاً بالأشجار والنباتات التي تُظلّلها بمواد الحرب الكيماوية القاتلة للنباتات ، وأُلقيت أعداد كبيرة من المحرقات ، ولكن لم تحدث نيران متداعية ولو أن أحدها على الأقل أحدث ضرراً محلياً كبيراً ، إذ يبدو أن انتخاب الموسم الجاف للقيام بالهجمات لم يكن كافياً لتحقيق الغاية ، فقد كانت في النباتات رطوبة تحول بينها وبين أن تنقل النار . ولكن يخطىء من يظن أن استخدام الأسلحة المحرقة استخداماً مركزاً لا يستطيع أن يشعل حرائق محلية كبيرة في الغابات أو المناطق الزراعية الأخرى ، حتى لو لم تنشأ عنها حرائق متداعية ، فقد ذكر مثلاً أن عشرات من الكيلومترات المربعة من غابات فيتنام قد دُمّرت حين أُلقيت عليها أعداد كبيرة من القنابل المحرقة في عملية من عمليات الحرمان .

القتال بالمحرقات في ميدان المعركة

لم تُستعمل أسلحة الميدان المحرقة في الحرب العالمية الثانية استعمالاً بارزاً في غير ساحة المحيط الهادي ، وقد أُضيف أحياناً إلى ما في المواضع الدفاعية الحصينة ـ حول موسكو وساحل انكلترا الجنوبي الشرقي مثلاً ـ قاذفات لهب والغام لهب اندفاعية[1] موضوعة في منعات . وقد كان لدى الجيوش المتحاربة قاذفات اللهب اليدوية والآلية من الأنواع والحجوم المختلفة ، ولكنها لم تستخدمها إلاّ لماماً . أما في معارك المحيط الهادي ، فقد استخدمت الأسلحة المحرقة استخداماً واسعاً في ميادين القتال : إذ وُجد أنها ملائمة أشد الملاءمة لطبيعة القتال الأرضي وطبيعة الأرض التي يجري فيها . وحين تيسرت أنواع الوقود المغلّظ لصابون نابالم منذ صيف ١٩٤٣م تيسر معها حافز آخر يدفع على استعمالها : فإن فضلها على أنواع الوقود الأخرى زاد من قدرة قاذفات اللهب وما يمكن أن تصنعه . وقد صار البنزين المغلّظ أساساً لسلاح محرق جديد يُلقى من الطائرات ثبت أن له تأثيراً كبيراً في عمليات الإسناد الأرضي ، ألا وهو : القنبلة النارية ، التي صنعت أول الأمر ارتجالاً من خزانات وقود طائرات احتياطية تملأ بالبنزين أو الزيوت .

لقد كان وزن أسلحة النابالم التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية قليلاً بالنسبة لما استخدم من الأسلحة الأرضية التقليدية ، ولكن تغير الأمر في الحرب الكورية بعد أن بدأ النابالم يحصل على ما له اليوم من شهرة باعتباره سلاحاً مفيداً في القتال . وقد وصفه أحد مستعمليه فقال : « إنه أحسن سلاح متعدد الأغراض في كوريا » . وكان مجموع ما استُهلك منه في الحرب اثنين وثلاثين ألفاً وثلاثمائة وخمسة عشر طناً (٣٢,٣١٥) ، وقد استُخدم النابالم بعد ذلك بعدة جيوش في العالم ، ويبدو أنه قد استخدم بشكل يكاد يكون مُسلّماً به في عدة منازعات وقعت أخيراً . وكانت فيتنام أوسع مجال استُخدم فيه ، ففي سبعة أشهر أُلقيت فيها قنابل نارية سنة ١٩٦٦م نُثر من النابالم ما يعادل ما استخدم في الحرب الكورية كلها ، بل استخدم أكثر من ذلك فيما بعد . ويقال : إن مجموع ما استهلك حتى آذار (مارس) سنة ١٩٦٨م أكثر من مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) طن ، يبدو أن أكثرها استخدم في الأسلحة الجوية . إذ أن هذه الأسلحة كما هو واضح ، يمكن أن تستخدم في مجالات أكثر مما تستخدم فيه أسلحة النابالم الأرضية .

وتعتمد أسلحة الميدان المحرقة الأخرى المستعملة في القتال اليوم على الفسفور الأبيض ، وهذه المادة يمكن أن تؤدي ثلاثة أغراض عسكرية : فهي عامل دخان لأغراض الحجاب ، وعامل محرق لإيقاد النار في المعدّات الفورية الاشتعال ، وعامل مقاوم للأفراد . إن من العوامل الأخرى ما هو أشد تأثيراً وأقدر على أداء أي غرض من تلك الأغراض الثلاثة على حدة ، ولكن ما من عامل يؤديها جميعاً ، ولذلك لا يزال الفسفور الأبيض يستخدم بكميات كبيرة .

نتائج حرب المحرقات اجتماعياً واقتصادياً

أظهرت تجارب الماضي ، أن المحرقات من أشد وسائل الدمار والخراب ، وهذا أظهر ما يكون في المناطق التي استخدمت فيها بكميات كبيرة في مقاتلة أهداف في المدن . وإذا استثنينا الأسلحة النووية وربما بعض الأسلحة الجرثومية والكيماوية ، فما من سلاح آخر يضع في أيدي القادة العسكريين قوة مدمرة تشبه قوة المحرقات . وحتى حين يستخدمها الأفراد سلاحاً شخصياً يستطيعون أن يهاجموا بها مناطق كبيرة أو يشعلوا حرائق قد تنتشر مسافات أبعد بكثير من أهدافها المباشرة . ولا يمكن السيطرة على تأثير أكثر الأسلحة المحرقة ، خلافاً للحال مع الأسلحة الأخرى : مثل الاطلاقات أو حتى القنابل المهداة ، وهي في أساسها عشوائية لا تُميز ، شأنها في ذلك شأن كل أسلحة المناطق ، ولذلك فإنها قد تجلب الموت والدمار للأنفس والأموال والممتلكات بلا تمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين وبشكل لا يمكن السيطرة عليه .

إن الأسلحة المحرقة ، حين تستخدم في الغارات الكثيفة على أهداف المدن ، تُرينا صورة للحرب بجوانبها كلها ، أي أنها تأتي بنتائج وحشية قاسية على المجتمع كله ، وهذه الصفة التدميرية موجودة في الأسلحة الأخرى التي تُكيّف

■ على الدولة التي تريد الحفاظ على مصير شعبها من أخطار الأسلحة المحرقة أن تنتج هذه الأسلحة ، وتاريخ الحرب الدولي خير دليل على هذا . ■

للتدمير الشامل ، غير أنه ثبت أن المحرقات تكون في بعض الأحوال ، مدمِّرة تدميراً بالغاً .

وقد وُجد في الحرب العالمية الثانية ، أن بعض المحرقات المتوسطة النوع كان ذا تدمير يزيد على تدمير المهداد بأربعة أمثال أو خمسة ؛ إذ كان تأثيرها يعم مناطق أوسع في مدة أطول ، والمصاعب التي تعترض جهود الانقاذ الدفاعي عند استخدامها . وهذه المقارنة لا تسمح بإطلاق الأحكام العامة عن ما للأنواع المختلفة من الأسلحة من أهمية بالنسبة إلى غيرها ، ولكن المثل الذي أوردناه يوحي مع ذلك بلا شك بأن الأسلحة المحرقة من أقوى الوسائل المعروفة لإحلال الدمار الشامل في مناطق المدن . لذلك فأية محاولة لتقليل النتائج الاجتماعية والاقتصادية الوخيمة التي تأتي بها الحرب الشاملة ، يجب أن يكون من أكبر أهدافها منع استخدام المحرقات استخداماً كثيفاً .

إن استخدام الأسلحة المحرقة بمقياس الغارات الجوية الكبيرة بالمحرقات التي وقعت في الحرب العالمية الثانية عمل يُكلِّف أموالاً طائلة : فإن ثلاثة أرباع الدمار المادي الذي أحدثته القاصفات في ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، أو أكثر ، كان من تأثير الحرائق . وقد قُدِّر بعد الحرب أن كل ميل مربع من الدمار قد كلَّف إحداثه إنفاق ما بين عشرة ملايين وخمسة وثلاثين مليون دولار : طائرات وعتاداً ومعدات . لذلك فالاحتمال القوي ، هو أن تكون الدول الفقيرة في هذا العالم ضحيّة لهذه الهجمات لا قائمة بها ، وقد تصيبها منها مصاعب ومصائب اقتصادية لا سبيل إلى معالجتها .

أما شكل الجانب الاقتصادي من الأنواع الأخرى من حرب المحرقات فمختلف شيئاً ما ، واعظم تكاليف الهجمات التي شُنَّت بالمحرقات بمقياس واسع في الحرب العالمية الثانية نشأت من منظومات إيصال المحرقات التي استخدمت ـ وهي قاصفات معقدة ـ والخسائر الكبيرة التي منيت بها أمام الدفاعات الجوية المعقدة الراقية . وفي مواقف المنازعات الأخرى التي تكون فيها الأهداف أقل شأناً أو حيث تكون الدفاعات الجوية أضعف أو لا وجود لها ، قد تكون أعداد قليلة نسبياً من طائرات أقل تعقيداً ، بل ربما طائرات مدنية محوَّرة ، وسيلة إيصال مجدية . وفي هذه الظروف ، يمكن أن تكون التكاليف المنخفضة نسبياً للأسلحة المحرقة عاملاً مهماً . فبعض المواد المحرقة ـ ولا سيما النابالم ـ بالغة الرخص وسهلة الإنتاج ، حتى في الدول الأقل تطوراً . لذلك يمكن أن نتصور حصول مواقف يمكن أن تسمح للدول المتحاربة التي ليس لها موارد عسكرية أو اقتصادية كبيرة بأن يوقع بعضها ببعض دماراً بالغ الشدة .

وللاستخدام التعبوي للقنابل النارية الملقاة من الجو جانب مهم من جوانب استخدام نابالم بالذات ، ولكنه غالباً ما يبين الطبيعة العشوائية لتأثير حرب المحرقات على المجتمع ، فتأثير كل قنبلة نابالم يشمل منطقة كبيرة ، وغالباً ما يكون إلقاء القنبلة نفسها غير دقيق في إصابة الهدف ، وكثيراً ما تكون الأهداف العسكرية قريبة جداً من الأهداف المدنية ، لذلك كله فقد تُحدث القنابل النارية ضرراً كبيراً للقطاع المدني حتى حينما تكون الأهداف التي يقع عليها الهجوم عسكرية في ظاهر الأمر . وقد يكون لهذا نتائج اجتماعية واقتصادية بعيدة الأثر ، من حيث إجلاء المدنيين اختياراً أو إكراهاً عن مناطق القتال أو انتقالهم عنها . وكذلك قد يحدث أن يستخدم العسكريون أسلحة أرضية محرقة ـ ولا سيما مثل استخدامهم قاذفات اللهب في قتال الشوارع ـ استخداماً تنجم عنه إصابات كبيرة بالمدنيين ، وهذا أمر ينبه أيضاً إلى الطبيعة العشوائية في النابالم وغيره من الأسلحة المحرقة .

وقد يستخدم النابالم والأسلحة المحرقة الأخرى في بعض الظروف لتدمير الغابات والمحاصيل الزراعية والنباتات الأخرى ، وهذه الهجمات قد تؤثر بعد مدة قصيرة في توفر المواد الغذائية لدى السكان في تلك المنطقة ، فتنشأ مخاطر سوء التغذية ، وفي الهجمات الشديدة جداً مخاطر مجاعة قد تهدد تهديداً بالغاً حياة الأطفال والشيوخ . كذلك قد يُقصد بهذه الهجمات تدمير بعض مصادر الموارد الخام كالخشب والمطاط ، وإذا نجحوا فقد تمر سنوات كثيرة إلى أن تستعيد المناطق المصابة مقدرتها على الإنتاج . ثم إن المعروف أن حرق غابة ما قد تكون له نتائج وخيمة طويلة الأمد ربما يتعذر تدارك بعضها ، فقد تبدأ التعرية في المنطقة المنزوعة الخضرة بداية أسرع ، وكذلك يزداد تسرب مياه المطر ، وهذا قد يؤدي إلى انخفاض سطح الماء الباطني شيئاً فشيئاً ، فينشأ عن ذلك آثار مائية ونوئية أوسع مدىً قد تجعل الظروف غير صالحة لإعادة تنمية النباتات والحيوانات التي كانت أصلاً في تلك المنطقة . وما يُعرف عن الآثار الطويلة الأمد التي تخلفها الحرائق الواسعة قليل ، غير أن هذا لا يسوِّغ التغاضي عنها : بل إنه من أسباب التغيير عن القلق في استعمال الأسلحة المحرقة لتدمير البيئة الزراعية البشرية .

إن معالجة المصابين بالحروق ، والعناية بهم ، أصعب على المستشفيات من معالجة أكثر أنواع الإصابات الأخرى ، وهذا أمر لا بد من إدراكه . والمعالجة بحاجة ماسة إلى عدد ضخم من الأطباء والممرضين والمواد ، ولا يخفى أن تهيئة ما يلزم لمعالجة ضحايا استخدام المحرقات استخداماً كثيفاً أمر يكاد يكون مستحيلاً على الدول المتقدمة جداً . ناهيك عن الدول التي لم تنل حظاً كبيراً من التقدم ، إذ لا مناص من أن يترك كثيرون من المصابين يُعانون من آلام مبرحة دون أحد يرعاهم طبياً .

وإن وسائل توفير الحماية للمدنيين من آثار المحرقات لا سيما آثار الحرائق المتداعية في مناطق المدن ليست موضع أمل كبير .

وبالرغم من أنه يمكن تصور منهج يوضع للملاجىء يهيِّء نوعية وافية بالغرض تمكن سكان مدينة ما من أن ينجوا من الحريق الهائل ، بل من العاصفة النارية ، ولكن هذا المنهج سيكون باهظ التكاليف من حيث ما سيكلِّفه من مال وما سيحدثه من تغير في المجتمع ، فضلاً عن أنه سيستغرق سنوات حتى يتم إنجازه .

وإذا كانت دول ما قد تولَّت تنفيذ منهج كهذا المنهج ، فإن عددها من غير شك قليل .

أما أنواع الحرائق الأقل خطورة ، فأعمال منها أيسر ، غير أن القليل جداً من المدن في العالم اليوم يمكن أن تنجو من دمار شديد يحل بها حتى من هذا النوع من الخطر . وفي الأحوال التي تستخدم فيها المحرقات تعبوياً ، يكون السكان المحليون غير المحاربين أشد وَهناً عادة من المحاربين بدرجة كبيرة ، ذلك أن المحاربين يعرفون الخواص التدميرية للأسلحة المحرقة ، وهو مدربون على مختلف الأعمال التي تجرى لمقاومة تأثيرها .

وهكذا نرى أن مما يزيد من التأكيد على الطبيعة العشوائية لتأثير الأسلحة المحرقة مصاعبَ توفير حماية وافية للسكان المدنيين .

فالدول الكبرى تتسابق في مجال تطوير الأسلحة المحرقة ومضاعفة أخطارها وتأثيرها في الأنفس والأموال والممتلكات والمزارع ، وليس هناك دولة تحجم عن استخدام هذه الأسلحة في حرب عدوها لأسباب إنسانية أو لتطبيق الأنظمة والقوانين الدولية المرعية ، ولكنها تحجم عن استخدامها في حالة واحدة فحسب : هي أن يكون لدى عدوها ما لديها من أسلحة محرقة كمية ونوعاً .

فالدولة التي تريد الحفاظ على مصير شعبها من أخطار الأسلحة المحرقة ، لا بد من أن تنتج هذه الأسلحة ، وكل عذر يخالف هذه الحقيقة عذر واهن غير مقبول ، وتاريخ الحرب الدولي خير دليل .

---

(١) الغام لهب اندفاعية : عُدد توضع في منعات ، وتستطيع هذه العُدد أن تقذف كتلة من عامل محرق مشتعل على المنطقة المحيطة عندما تستثار بسلك عثرة أو بمسيطر بعيد .